الباب الخامس والعشرون

مصر والغرب

الفصل الأول

سجل الملوك

كانت أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها من نصيب أقدر قواده وأعظمهم حكمة . وقد برهن بطليموس بن لاجوس على ولائه العظيم للملك المتوفى — ولعله أراد أن يدعم سلطانه بهذا الولاء — بأن نقل جثته إلى منفيس وأمر أن تودع تابوتاً من الذهب(*) وجاء معه أيضا بتاييس Thais التى كانت عشيقة الإسكندر فى بعض الأوقات ، وتزوجها ورزق منها بولدين . وقد كان بطليموس هذا جنديا بسيطا ، صريحا ، خشن الطباع ، قادرا على الإحساس الكريم والتفكير الواقعى . وبينما كان غيره من ورثة ملك الإسكندر يقضون نصف حياتهم فى الحروب ، ويحلمون بأن تكون لكل منهم دون غيره السيادة على هذا الملك ، بذل بطليموس جهوده كلها فى تدعيم مركزه فى البلد الأجنبى الذى كان من نصيبه ، وفى ترقية زراعته وتجارته وصناعته . وأنشأ لذلك أسطولا عظيما وأمن مصر من الغزو البحرى كما أمنتها الطبيعة من الغزو البرى ، وجعلتها من هذه الناحية أمنع من عقاب الجو . وساعد رودس وعصب المدن المتحالفة على الاستقلال عن مقدونية ، ومن أجل هذا سمى «سوتر Soter» . ولم يلقب نفسه ملكا إلا بعد ثمانية عشر عاما من العمل الشاق دعم فى خلالها

(*) وقد أمر بطليموس فلدلفس أن ينقل التابوت إلى الإسكندرية ، وأذاب بطليموس هذا الذهب لينتفع به وعرض جثة الإسكندر فى تابوت من الزجاج .

حياة مملكته الجديدة من النواحى السياسية والاقتصادية ، وأقامها على نظام ثابت متين (٣٠٥) . وكانت نتيجة جهود خلفه أن بسطت مصر حكمها على قورينة ، وكريت ، وجزائر سكلديز ، وقبرص ، وعلى سوريا ، وفلسطين ، وفينيقية وساموس ، ولسبوس ، وسمثريس ، والهلسپنت . وقد وجد فى شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات صادقة صدقاً مدهشاً على حروبه ، وأن ينشئ حوالى عام ٢٩٠ دار العاديات والمكتبة اللتين قامت عليهما شهرة الإسكندرية . ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره وأحس بضعف الشيخوخة أجلس ابنه الثانى بطليموس فلدلفس مكانه على العرش وأسلمه زمام الحكم ، واتخذ مكانه كأحد الرعايا فى بلاط الملك الشاب . ومات بعد عامين من ذلك الوقت .

وكان وادى النيل الخصيب وداله قد ملأا خزائن الملك بالمال . وحسبنا دليلا على هذا أن بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر إلى أن يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم ، أما بطليموس الثانى فقد أنفق فى آخر حفلات تتويجه ما قيمته ٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى[٢] . واعتنق الملك المصرى الحديد فلسفة قورينة واعتزم أن يستمتع بكل ما تتيحه له الساعة التى هو فيها من لذة . فكان يتخم معدته بشهى الطعام ، وجرب كثيراً من العشيقات ، وأقصى عنه زوجته ، وتزوج آخر الأمر بأخته أرسينوئى[٣] Arsinoë . وحكمت الملكة الجديدة الإمبراطورية وصرفت شئونها الحربية بينما كان بطليموس الثانى يحكم بين طهاته وعلماء بلاطه . وحذا حذو أبيه وزاد عليه بأن استقدم إلى الإسكندرية مشهورى الشعراء ، والعلماء ، والنقاد ، والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفة ، والفنانين ، واستضافهم عنده ؛ وزين عاصمته بالمبانى الفخمة على الطراز اليونانى حتى صارت الإسكندرية فى أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية ، وازدهرت آدابها ازدهاراً لم تر مثله مرة

أخرى . لكن فلدلفس لم يكن مع هذا كله سعيداً فى شيخوخته . فقد اشتد عليه داء النقرس ، وزادت متاعبه بازدياد ثروته وسلطانه . وأطل مرة من نافذة قصره فأبصر متسولا يرقد مستريحاً فى الشمس على كثبان الميناء الرملية ، فحسد الرجل على نعمته ، وقال متحسراً : « وا أسفاه ! ليتنى ولدت واحداً من هؤلاء[٤] ! » . وساوره خوف الموت ، فطلب إلى الكهنة المصريين أن يدلوه على إكسير الخلود السحرى[٥] .

ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده يقولون إنه هو الذى أنشأهما . وكان دمتريوس فليرم قد لجأ إلى مصر فى عام ٣٠٧ بعد أن طرد من أثينة ، فإذا نحن نجده بعد عشر سنين من ذلك الوقت فى بلاط بطليموس الأول ؛ ويلوح أنه هو الذى أوحى إلى بطليموس سوتر أن عاصمة ملكه وأسرته تذيع شهرتهما إذا أنشأ متحفاً (أى بيتاً لربات الفنون والعلوم Muses(*)) يضارع جامعات أثينة . وأكبر الظن أن دمتريوس قد ألهم نشاط أرسطو فى جمع الكتب ، وضروب المعرفة ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، ودساتير الحكم ، وتصنيف ما جمعه منها ، فأشار على ما يظهر بأن تقام طائفة من المبانى لا تتسع لإيواء مجموعة عظيمة من الكتب فحسب ، بل تتسع فوق ذلك لإيواء العلماء الذين يقضون حياتهم فى البحث العلمى . واقتنع بطليموس الأول والثانى بهذه الفكرة ، فأمداه بالمال ، وقامت الجامعة الجديدة على مهل بالقرب من القصور الملكية . وكانت تحتوى على ردهة عامة يلوح أن العلماء كانوا يتناولون فيها الطعام ، وقاعة للمحاضرات ، وبهواً ، ورواقاً ، وحديقة ، ومرصداً فلكياً ، والمكتبة الكبرى . وكان رئيس هذا المعهد كله من الناحية الرسمية كاهناً دينياً ، لأنه كان مخصصاً لإلهات الفن بوصفها

(*) هذا هو المعنى الحرفى للفظ Museum . (المترجم)

معبودات بحق . وكان يعيش فى المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين ، وكتاب ، وعلماء فى الطبيعة ، وأطباء . وكان هؤلاء كلهم من اليونان ، وكانوا جميعاً يتقاضون مرتبات من الخزانة الملكية . ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب ، بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات وإجراء التجارب . ولما تضاعف عدد الطلاب فى المتحف فى العقود التالية ، قام أعضاؤه بإلقاء المحاضرات ، ولكنه بقى إلى آخر أيامه معهداً للدراسات الراقية أكثر مما كان جامعة للطلاب . ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم ؛ وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من البطالمة ومن الإسكندرية .

ومات بطليموس فلدلفس عام ٢٤٦ بعد حكم طويل قام فيه بكثير من جلائل الأعمال . وكان بطليموس الثالث أورجيتيس Euergetes (المحسن) ملكا من طراز تحتمس الثالث يبغى فتح بلاد الشرق الأدنى . فبدأ بالاستيلاء على سرديس وبابل ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بلاد الهند ، وزعزع كيان الإمبراطورية السلوقية حتى انهارت حين مستها جيوش رومة . ولسنا نريد أن نتتبع حادثات حروبه ، لأنها ، وإن كانت فى تفاصيلها أشبه الأشياء بالرواية التمثيلية ، كانت فى أسبابها ونتائجها موحشة لاحد لوحشتها ؛ وإن تاريخ الحروب إذا قص أصبح تابعاً ذليلا لتقلبات القوة والسلطان تلغى فيها الانتصارات والهزائم بعضها بعضاً فتجعله تاريخاً أجوف لا قيمة له . وحسبنا أن نقول إن برنيس Berenice زوجة أورجيتيس الشابة عبرت عن شكرها لانتصاراته بأن وهبت خصلة من شعرها للآلهة ؛ وتغنى الشعراء بهذه القصة ، ورفع الفلكيون عقيرتهم بها إلى السماء فسموا إحدى المجموعات النجمية باسم كوما برنيسيز Coma Berenices أى شعر برنيس .

وكان بطليموس الرابع فلوپاتر يحب أباه حباً حمله على أن يحذو حذوه فى

حروبه وانتصاراته . ولكنه أحرز النصر على أنتيوخوس الثالث فى رافيا (٢١٧) باستخدام جيوش مصرية ، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها البطالمة هؤلاء الجنود ، فلما أن تسلح المصريون على هذا النحو وشعروا بقوتهم بدأوا يقوضون سلطان اليونان فى وادى النيل . وانغمس فلوپاتر فى اللهو ، وقضى كثيراً من الوقت فى قارب نزهته ، وأدخل عيد البكاناليا فى مصر ، وكاد يقنع نفسه بأنه من نسل ديونيشس . وقد حدث فى عام ٢٠٥ أن قتلت عشيقته زوجته ، ولم يلبث فلوپاتر نفسه أن اختفى هو الآخر من التاريخ . وأعقبت موته فترة من الفوضى أوشك فيها فليب الخامس المقدونى وأنتيوخوس الثالث السلوقى أن يمزقا أوصال مصر ويضماها إلى بلادهما ، ولكن رومة التى عقد معها بطليموس الثانى معاهدة صداقة — تدخلت فى الأمر وهزمت فليب ، وأرغمت أنتيوخوس على أن يعجل بالعودة إلى بلاده وبسطت حمايتها على مصر (٢٠٥) .

الفصل الثانى

الاشتراكية فى عهد البطالمة

إن أهم ما يعنينا فى مصر البطالمة هو تجربتها الواسعة فى الاشتراكية الدولية . لقد كانت ملكية الأرض من زمن بعيد عادة مقدسة فى مصر ، وكان لفرعون، بوصفه ملكا وإلها ، حق كامل على الأرض وعلى كل ماتنتجه . ولم يكن الفلاح عبدا ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك مكانه إلا بإذن الحكومة ، وكان يطلب إليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدولة(٦) . وأبقى البطالمة على هذا النظام ووسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضى الواسعة التى كانت فى عهد الأسر الحاكمة السابقة ملكا للأعيان المصريين أو للكهنة . وكانت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين ، يؤيدها حراس مسلحون ، تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة(٧) . وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل زارع تقريباً قطعة الأرض التى ينبغى له أن يزرعها ، والمحصولات التى يجب أن ينتجها ؛ وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم، وإقامة المبانى العامة ، والصيد ، وشق قنوات الرى، وإنشاء الطرق . وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ؛ ويدون الكتبة مقدارها ،وتدرس فى أجران الملك ، ويحملها الفلاحون أنفسهم إلى مخازن الملك(٨) . وكان يستثنى من هذا النظام بعض حالات : فقد كان البطالمة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ، ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ، ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود يكافئونهم بها على ما قدموا للدولة من خدمات . ولكن هذه الأراضى المستأجرة كانت مقصورة فى العادة على المساحات التى يوافق صاحبها على أن يخصصها للكروم ، أو البساتين ، أو أشجار الزيتون ؛ ولم يكن

يسمح له أن يورثها أبناءه أو أن يوصى بها لمن يشاء ؛ وكان للملك أن يلغى حق الإيجار متى أراد . ولما تحسنت حال هذه الأرض التى يشترك فى ملكيتها الفرد والدولة بفضل جهود اليونان ومهارتهم ، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها أبناءهم . وكان العرف لا القانون يجيز هذا التوريث فى القرن الثانى ، ثم اعترف به القانون فى القرن الأول قبل الميلاد[٩] ، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة .

وما من شك فى أن تطور هذا النظام الاشتراكى الحكومى، قد حدث لأن أحوال الزراعة فى مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل فى الزمان والمكان أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية ، وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار الفيضان السنوى. وكفاية نظام الرى والصرف ، وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية . وقد عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين الأساليب القديمة ، واستخدموا فى زراعة الأرض وسائل أكثر انطباقا على العلم وعلى الإنتاج الضيق الوفير ، فاستبدل بالشادوف « الناعورة » أو « الساقية » ، وهى عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحيانا أربعين قدما تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافتها الخارجية(*) فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان فى العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء فى حوض . وخير من هذه الآلة « لولب أركميدس(**) » ومضخة تسيبوس(†) وهما يرفعان الماء بسرعة لم تكن معروفة قبل عصر البطالمة ، ويفضل تركيز الإدارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السخرة أمكن إقامة المنشآت العامة للتحكم فى فيضان النيل ، وإنشاء الطرق ،

(*) فى الأصل الإنجليزى الداخلية ولكن ما أثبتناه هنا هو الصحيح ولا تزال هذه الآلة مستعملة فى ريف مصر إلى الآن . (المترجم)

(**) هذا هو المعروف عندنا بالطنبور .

(†) انظر الباب السابع والعشرين .

وشق قنوات الرى ، وتشييد المبانى ، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التى تمت فى أيام الحكم الرومانى . وقد جفف بطليموس الثانى بحيرة موريس وحول قاعها إلى مساحة واسعة من الأرض الخصبة وزعها على جنوده ، وشرع فى عام ٢٥٨ يعيد فتح القناة التى تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس(١١) . وكان نخاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل ، ولكن الرمال فى كلتا الحالين طمرتها ، كما طمرت قناة بطليموس بعد مائة عام من شقها .

وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لهذه الظروف ، فلم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب ، بل كانت تديرها بنفسها أوتستولى على مايخرج من المعادن(١٢) . واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية فى بلاد النوبة ، وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة ؛ وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس فى قبرص وطور سيناء ، ويحتكرون صناعة الزيت — ولم يكونوا يستخرجونه من الأرض ، بل كانوا يعصرونه من النبات كبذور الكتان وحب الملوك (الكروتن) ، والسمسم ؛ وكانت الحكومة تحدد فى كل عام مقدار ما يزرع من الأرض بهذه النباتات ، وتستولى على المحصول بالثمن الذى تحدده له ؛ وتعصر الزيت فى مصانع تمتلكها الدولة بعصّارات من كتل الخشب الضخمة يحركها أقنان الأرض ، ثم تبيع الزيت إلى تجار التجزئة بالثمن الذى تريده هى ، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية ؛ وكانت أرباحها من هذه العملية تتراوح بين سبعين وثلثمائة فى المائة(١٣) . ويلوح أن الحكومة كانت تجنى أرباحاً مماثلة لهذا الربح من الملح ، والنطرون (كربونات الصودا المستخدمة فى صنع الصابون) ، والبخور ، والبردى ، والمنسوجات . وكانت فى البلاد مصانع للنسيج يمتلكها الأفراد ، ولكنها كانت تضطر إلى بيع كل ما تنتجه إلى الحكومة(١٤) . أما الصناعات الصغرى فقد تركت للأفراد ، وكانت الدولة تكتفى بالتصريح بها

ومراقبتها ، وابتياع جزء كبير من منتجاتها بالثمن الذى تحدده لها ، وفرض ضريبة طيبة على أرباحها تجبى لخزانتها . وكانت الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية ، وكانوا بحكم هذه التقاليد نفسها مرتبطين بقراهم وبمنازلهم أيضاً[١٥] . وكانت الصناعة متقدمة ، فكانت العربات ، وقطع الأثاث ، والفخار ، والأبسطة ، ومواد التجميل تصنع بكميات كبيرة ؛ وكان صنع الزجاج ونسج التيل من الصناعات التى اختصت بها الإسكندرية . وكانت الاختراعات أكثر تقدماً فى مصر فى عصر البطالمة منها فى أى عصر آخر قبل رومة الإمبراطورية . وكانت الأدوات اللولبية والتروس ، وطارات السيور ، والضاغطات اللولبية ، كانت هذه كلها معروفة مستعملة[١٦] ؛ وتقدمت كيمياء الصباغة إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش فى صبغة واحدة نتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة[١٧] . وكانت مصانع الإسكندرية يديرها العبيد عادة ، وكانت نفقاتهم القليلة تمكن البطالمة من أن يبيعوا منتجاتها فى الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية[١٨] .

وكانت الحكومة تشرف على التجارة بأجمعها وتنظم شئونها . فكان بائعو الأشتات عادة وكلاء معينين من قبـــل الدولة لتوزيع بضائع الدولة[١٩] ، وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية . وقد أدخل بطليموس الثانى الجمل فى مصر وأقام مخفراً من راكبى الجمال فى جنوب القطر ؛ يتولى نقل المخابرات الحكومية دون غيرها ؛ ولكن هذه المخابرات كانت تشمل الرسائل التجارية كلها تقريباً . وكان نهر النيل غاصاً بسفن الركاب والبضائع ، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكا للأفراد وخاضعة لأنظمة الدولة[٢٠] . وقد أنشأ البطالمة لتجارة البحر الأبيض المتوسط أعظم أسطول تجارى فى ذلك الوقت ، وكانت حمولة السفينة الواحدة من سفنه تبلغ ثلثمائة طن[٢١] . وكانت مخازن

الإسكندرية تستهوى التجارة العالمية ، وكان مرفأها المزدوج مما تحسدها عليه سائر المدن ، كما كانت منارتها من عجائب الدنيا السبع(*) . وكانت حقول مصر ومصانعها كبيرة وصغيرة تنتج قدراً كبيراً من الغلات الزائدة على حاجة البلاد تباع فى الأسواق النائية التى تصل إلى الصين شرقاً ، وإلى أواسط إفريقية جنوباً ، وإلى الروسيا والجزائر البريطانية شمالا . وقد سار الروادا لمصريون جنوباً حتى بلغوا زنجبار وبلاد السومال ونقلوا إلى العالم أخبار سكان الكهوف الذين يعيشون على سواحل إفريقية الشرقية ويقتاتون بالأطعمة البحرية ، والنعام ، والحزر ، وجذور النبات(٢٤) . واستطاعت السفن المصرية أن تقضى على سيطرة العرب على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى بسيرها من النيل إلى الهند مباشرة ، وأضحت الإسكندرية بتشجيع البطالمة وحكمتهم أهم الثغور التي يعاد منها شحن البضائع المرسلة إلى أسواق بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان ممازاد فى سرعة نماء التجارة والصناعة وازدهارهما ماقدمته المصارف المالية من تسهيلات عظيمة . لقد بقى فى مصر حتى ذلك الوقت قدر من المقايضة ورثته البلاد من العهود القديمة : وكانت الحبوب المحفوظة فى المخازن الملكية بمثابة رصيد احتياطى للمصارف ؛ ولكن إيداع الحبوب وسحبها ، وتحويلها من يد إلى يد كان فى الاستطالة إتمامها على الورق بدل إجراء هذه العمليات

(*) ويقول ستراتس النيدى Sostratus of Cnidus إن الذى أقامها هو بطليموس الثانى وإنه أنفق فى تشييدها ثمانمائة وزنة (نحو ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى(٢٢)) . وكانت تعلو بدرج متراجعة إلى ارتفاع أربعمائة قدم ، ويغطيها الرخام الأبيض وزينها تماثيل من الرخام والبرنز . وقد وضع فوق القبة المقامة على الأعمدة والتى كانت تحمل الضوء تمثال لبسيدن يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدما . وكان هذا الضوء ينبعث من نار وقودها خشب راتنجى ؛ والراجح أن مرايا محدبة كانت تعكسه بحيث يرى على بعد ثمانية وثلاثين ميلا(٢٣) وقد تم بناء المنارة فى عام ٢٧٩ ق . م وهدمت فى القرن الثالث عشر الميلادى . ومحل جزيرة فاروس التى كانت مقامة عليها هو الآن حى رأس التين بالإسكندرية . أما موضع المنارة نفسه فقد غمره ماء البحر .

بالفعل[٢٥] . وقد قام إلى جانب هذه المقايضة المعدلة نظام اقتصادى نقدى معقد . وكانت الحكومة تحتكر لنفسها إنشاء المصارف ، ولكن كان فى وسعها أن تنيب عنها فى أعمالها شركات خاصة[٢٦] . وكانت الحسابات تدفع بتحاويل مما لأصحابها فى المصارف من أرصدة ؛ وكانت المصارف تقرض المال بالربا ، وتسدد حسابات الخزائن الملكية . وقصارى القول أننا لانعرف فى التاريخ كله عهداً بلغت فيه الزراعة ، والصناعة والتجارة ، والمالية ، ما بلغته كلها فى هذا العهد من ثراء ، ووحدة ، ونماء خال من العاطفة الإنسانية .

وكان المشرفون على هذا النظام ومنفذوه هم اليونان الأحرار المقيمون فى العاصمة . وكان على رأسهم كلهم فرعون — الملك — الإله . وكان بطليموس فى نظر سكان بلاد اليونان منقذاً Soter ، أو محسناً Euergetes بحق ، فقد وهبهم مائة ألف منصب حكومى وأتاح لهم فرصا اقتصادية لا حد لها ، ويسر لهم سبل الحياة العقلية تيسيراً لا عهد لهم به من قبل ، وأوجد لهم بلاطا كان مصدر الحياة الاجتماعية المترفة ومركزها . ولم يكن الملك نفسه ملكا مستبداً لايسأل عما يفعل ؛ فقد اجتمعت التقاليد المصرية والشرائع اليونانية على إقامة نظام تشريعى أخذت بعضه عن القانون الأثينى وحسنت فيه من جميع نواحيه ما عدا ناحية الحرية . وكان لأوامر الملك قوة القانون بأكملها ؛ ولكن المدن كانت تستمتع بقسط كبير من الحكم الذاتى . وكانت الجماعات المصرية ، واليونانية ، واليهودية ، تخضع كل منها لشرائعها الخاصة ، وتختار قضاتها ، وتحاكم أمام محاكمها[٢٧] . وفى تورين بردية سجلت فيها إحدى قضايا الإسكندرية ، وقد حدد فيها موضوع النزاع تحديداً دقيقاً ، وعرضت فيها الأدلة بعناية فائقة ، ولخصت السوابق ، ثم صدر الحكم بالنزاهة المطلوبة من القضاة . وثمة برديات أخرى سجلت فيها وصايا أهل الإسكندرية ، وهى تزيح الستار عن قدم الصيغ

والعبارات القانونية : « هذه هى وصية بزياس Peisias اللوشيانى ابن س ، الكامل العقل ، الحر الاختيار[٢٨] » .

وكانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاما فى العالم الهلنستى . وقد أخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس ، واستقلال مدنها بشئونها الخاصة عن بلاد اليونان ، ثم أخذتهما عنها رومة . وقد قسمت البلاد إلى أقاليم ، يدير كلاً منها موظفون يعينهم الملك ، وكانوا كلهم تقريبا من اليونان . وقد أغفل البطالمة ما كان يعتزمه الإسكندر من جعل اليونان والشرقيين أو المصريين يعيشون ويختلطون على قدم المساواة بعد أن تبين لهم أن هذه الفكرة غير اقتصادية ، وأصبح وادى النيل فى ظاهر الأمر وباطنه يحكم كما تحكم البلاد المفتوحة ، فقد أدخل المشرفون اليونان على حياة مصر الاقتصادية كثيراً من الرقى فى النواحى الفنية والإدارية ، وزادوا ثروة البلاد من الناحية الاقتصادية ، ولكنهم استولوا على ما زاد من هذه الثروة . ورفعت الدولة أثمان الغلات التى كانت تسيطر عليها ، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض الضرائب الجمركية العالية ، فكان ما يباع من زيت الزيتون بإحدى وعشرين درخمة فى ديلوس يباع بمائتين وخمسين فى الإسكندرية . وكانت الحكومة فى كل مكان فى البلاد تجبى الضرائب وإيجار الأرض ، والرسوم الجمركية ، وعوائد المرور على الطرق ، وتستولى من الناس أحيانا على جهودهم وحياتهم نفسها . وكان الفلاح يؤدى للدولة أجرا على امتلاك الماشية ، وعلى ما يقدمه لها من علف ، وعلى الإذن له برعيها فى أرض الكلأ العامة . وكان ملاك الحدائق ، والكروم ، والبساتين ، من الأفراد يؤدون للدولة سدس منتجاتها (وفى أيام بطليموس الثانى نصف هذه المنتجات)[٢٩] . وكان الأهلون كلهم ، ما عدا الجنود ، ورجال الدين ، وموظفى الحكومة ، يؤدون فرضة الرؤوس . وكانت الضرائب مفروضة على الملح ، والمحررات الرسمية ، والمواريث . وكانت تفرض على الإيجارات ضريبة قدرها خمسة فى المائة منها ، وعلى المبيعات عشرة

فى المائة من أثمانها ، وخمسة وعشرون فى المائة على الأسماك المصيدة فى المياه المصرية ، وعوائد على البضائع التى تنقل من القرى أو المدن أو تنقل بطريق النيل . وكانت رسوم عالية تفرض فى الثغور المصرية على جميع الصادرات والواردات ؛ وكانت ضرائب خاصة تفرض للإنفاق على الأسطول والمنارة البحرية ، وللترفيه عن أطباء البلديات ورجال الشرطة ، ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد(٣٠) . وقصارى القول أن الدولة لم تكن تترك شيئاً يسمنها إلا فرضت عليه ضريبة . وقد احتفظت الدولة بجيش من الكتبة ، وبنظام واسع من التسجيل للأشخاص والأملاك ، لتستطيع بهما إحصاء جميع الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التى يصح فرض الضرائب عليها . أما جباية هذه الضرائب فقد كانت تعهد إلى جماعة من الإخصائيين ، تراقب هى أعمالهم ، وتجعل أملاكهم ضمانا تحت يدها حتى يؤدوا لها حقها . والراجح أن مجموع إيرادات البطالمة نقدا وعينا كان أكبر ما جمعته دولة من الدول فى الفترة المحصورة بين سقوط دولة الفرس وعظمة رومة .

———

(شكل ٥٢) أفروديتى سيرينى (متحف رومة)

الفصل الثالث

الإسكندرية

وكان الجزء الأكبر من هذه الثروة يرد إلى الإسكندرية ، وكانت عواصم الأقاليم وقلة من المدن الأخرى تستمتع أيضا بالرخاء ، فكانت أرضها مرصوفة وشوارعها مضاءة ، وكانت لها شرطة تحمى أهلها ، وكانت تمد بالماء النقى ؛ ولكن الإسكندرية بنوع خاص كانت تستمتع بنظام « حديث » لم يعهد له مثيل من قبل ، ويصفها استرابون فى القرن الأول بعد الميلاد فيقول إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال فى الطول وميلا فى العرض ؛ ويقدر بلنى طول أسوارها بخمسة عشر ميلا(٣١). وقد اختط المدينة دنقراطس المهندس الرودسى ، وستراتس النيدى على شكل مستطيل فى وسطه شارع رئيسى يبلغ عرضه مائة قدم يخترقها من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر فى مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال . وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاءان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمد . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدها نحو الغرب حى ركوتس Rhacotis وكانت كثرة سكانه من المصريين ؛ وكان الحى الشمالى الشرقى حى اليهود ، والجنوبى الشرقى أو البركيوم Brucheum يحتوى على القصر الملكى ، والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية ، وكثير من الحدائق الفسيحة . وكان لإحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ستمائة ق. م. وكانت حديقة أخرى تحتوى على مجموعة الحيوانات الملكية . وكان فى وسط المدينة مبانى الإدارات والمخازن الحكومية ، والمحكمة ، ومدرسة الألعاب الرياضية ، وألف حانوت وسوق .

وكان فى خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى ، وميدان للسباق ، ومدرج ، ومقبرة عظيمة تعرف بمدينة الموتى (Necropolis)[٢٣] . وكانت تمتد على طول شاطئ البحر مقاصير للاستحمام والاصطياف . وكان يصل المدينة بجزيرة فاروس جسر أو حاجز يسمى الهبتستديوم Heptastadium لأن طوله كان يبلغ سبعة استديومات(*)، وكان المرفأ مرفأين . وكانت تقع خلف المدينة بحيرة مريوط ، وتستخدم مرافئ ومخارج للسفن النيلية . وفى هذه البحيرة كان البطالمة يحتفظون بقوارب التنزه ، ويقضون ساعات الراحة من عناء الأعمال(**) .

وكان سكان الإسكندرية فى عام ٢٠٠ ق . م خليطا من أجناس مختلفة كما هى حال سكان العواصم فى هذه الأيام . وكانت عدتهم تتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف من المقدونيين ، واليونان ، والمصريين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الأناضول ، والعرب ، والزنوج (+)[٢٣] . وزاد انتشار التجارة عدد أفراد الطبقة الوسطى — الدنيا وملأ العاصمة المختلطة السكان بطائفة نشيطة ، وثرثارة ، متشاحنة من أصحاب الحوانيت والتجار ، لا تغفل لهم عين عن اقتناص أية فرصة لعقد الصفقات التجارية غير مراعين فى ذلك شرفا أو أمانة . وكان على رأس هذه الطوائف السالفة الذكر المقدونيون واليونان ، يعيشون عيشة بلغت من الترف حدا أدهش السفراء الرومان الذين عينوا فى بلاط ملوك مصر عام ٢٧٣ . ويذكر أثنيوس أصناف الأطعمة الشهية التى كانت تثقل موائد هؤلاء السادة ومعداتهم[٢٤] ،

(*) الاستديوم مقياس يونانى يبلغ طوله ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدم إنجليزية .

(**) ولا يكاد يوجد الآن من الإسكندرية القديمة إلا عدد قليل من سراديب الموتى الأعمدة . وإذا كانت آثار هذه المدينة تحت الإسكندرية الحالية مباشرة ، فإن أعمال الحفر للكشف عنها تكون عظيمة النفقة . وأكبر الظن أن هذه الآثار قد هبطت إلى ما تحت مستوى ماء البحر ، ولا شك أن البحر الأبيض المتوسط قد غمر أجزاء من المدينة القديمة .

(+) وكان عدد سكان الإسكندرية فى عام ١٩٢٧ هو ٥٧٠٫٠٠٠ .

ويقول عنهم هروداس Herodas إن « الإسكندرية هى بيت أفروديتى ، وإن الإنسان ليجد فيها كل شىء — ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ، ومعادن ثمينة ، وشبانا ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيبا ، ومجمعا للعلوم ، وخمرا لذيذة ، ونساء حسانا »[٣٥] . وكان شعراء الإسكندرية قد أخذوا يكشفون ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن كتابها القصصيون موضوعا لكثير من قصصهم ، كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنتهى بها هذه القصص . غير أن المدينة قد اشتهرت فى ذلك الوقت بسماحة نسائها وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى لقد شكا پوليبوس من أن أجمل البيوت الخاصة فى الإسكندرية تمتلكها العاهرات[٣٦] . وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريتهن فى الشوارع ، ويبتعن حوائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال . وكان منهن أديبات وعالمات مشهورات[٣٧] . وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من أرسينوئى زوجة بطليموس الثانى إلى كليوبطرة يقمن بدور هام فى الشئون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب ، ولكنهن قد احتفظن بما يكفى من الجمال والفتنة لإثارة الرجال لأعمال من الشهامة والبطولة لامثيل لها من قبل ، فى عالم الشعر والنثر على الأقل إن لم يكن فى واقع الأمر ، وقد أدخلن فى مجتمعات الإسكندرية عنصراً من الظرف والرشاقة النسوية لم يكن معروفاً فى بلاد اليونان أيام مجدها .

والراجح أن نحو خمس سكان الإسكندرية كان وقتئذ من اليهود . ولقد كان فى مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد مواطن للعبرانيين ، ثم قدم إليها كثيرون من تجار اليهود فى أعقاب الفتح الفارسى ؛ وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم ، كما يقول يوسفوس ، أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية[٣٨] . وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خافه سراحهم[٣٩] ، ثم دعا

فى الوقت نفسه كثيراً من أثرياء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية(٤٠) . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادى حتى بلغ عدد اليهود فى مصر مليوناً من الأنفس(٤١) ، يعيش عدد كبير منهم فى الحى اليهودى من العاصمة . لكنهم لم يكونوا مرغمين على الإقامة فى هذا الحى ، بل كان لهم مطلق الحرية فى الإقامة فى أى حى من أحيائها عدا البروكيوم Brucheum الذى كان مقصوراً على أسر الموظفين ومن يخدمونهم . وكانوا يختارون لأنفسهم مجلس كبرائهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام أنياس Anias حاخامهم الأكبر فى عام ١٦٩ هيكلا عظيما فى لبونتوليس Leontopolis إحدى ضواحى الإسكندرية، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية ، ومن ثم أطلق عليها من يتكلمون اللغة اليونانية من اليهود اسم سيناجوجاى أى أمكنة الاجتماع . وإذ لم يكن فى مصر من بين اليهود المصريين بعد الجيل الثانى أو الثالث إلا أقلية ضئيلة تعرف اللغة العبرية ، فإن قراءة الشريعة كان يتلوها شرح لها باللغة اليونانية ، ومن هذه الشروح والتطبيقات نشأت عادة قراءة المواعظ من نصوص مكتوبة ، كما نشأت من هذه الشعيرة الدينية أولى أشكال القداس الكاثوليكى(٤٢) .

ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافة إلى المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر ذلك العصر . ذلك أن المصريين واليونان قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم إستقلال اليهود الثقافى عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولم يكونوا يطيقون نشاطه وصبره وحذقه ؛ ولما أن أخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود هم الذين ينقلون هذه البضاعة فى أساطيلهم(٤٣) . وأدرك اليونان عجزهم عن صبغ

اليهود بالصبغة الإغريقية ، فأوجسوا خيفة على مستقبلهم فى دولة تستمسك الكثرة الغالبة من أهلها بشرقيتها وتتكاثر بسرعة كبيرة . ونسى اليونان تشريع بركليز ، فأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم التزاوج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، ومن أن معظم اليهود لايختلطون بغيرهم . وكثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية ، ونشر مانيثون المؤرخ المصرى القصة القائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو الجذام(٤٣) ، واشتدت الأحقاد من كلا الجانبين حتى أدت فى القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخربة .

وبذل اليهود غاية جهدهم لتخفيف حدة الغضب من عزلتهم الاجتماعية ونجاحهم فى أعمالهم المالية والتجارية ، فأخذوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وإن ظلوا متمسكين بدينهم ، كما أخذوا يدرسون الآداب اليونانية ويكتبون فيها ، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية . ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهودى الذى لايعرف العبرية من قراءة كتبه المقدسة ، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية فى عهد بطليموس الثانى على الأرجح ، تترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية . وسر الملوك من ذلك العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدى هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالا عن أورشليم مما كانوا حتى ذلك الوقت ، وأن يقل تسرب الأموال اليهوديه — المصرية إلى فلسطين . وتقص إحدى القصص الخرافية كيف دعا بطليموس فلدلفس ، عملا بمشورة دمتريوس الفاليرى ، سبعين عالما من علماء اليهود إلى المجىء من بلادهم فى فلسطين فى سنة ٢٥٠ ، وكلفهم بترجمة كتبهم المقدسة ، وكيف أسكن الملك كل واحد من هؤلاء العلماء فى حجرة خاصة بجزيرة فاروس ، ولم يسمح له بالاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة ؛ فلما فرغ السبعون من ترجماتهم وجدها تتفق

بعضها مع بعض فى كل كلمة ، فدل ذلك على أن هذه النصوص موحى بها من عند الله ، وأن المترجمين أنفسهم قد أوحيت الترجمة إليهم ، وكيف نفح الملك هؤلاء العلماء بعطايا قيمة من الذهب . وتروى القصة فى نهايتها أن الترجمة اليونانية للتوراة العبرية قد عرفت لهذا السبب باسم — الشروح عن السبعين hermeneia keața tous hebdomebkonta وباللاتينية (seniorum) Interpretaio Selpuaginta أو فى كلمة واحدة Septuagint[*] ، [٤٤]. وأياً كانت طريقة الترجمة فيبدو أن أسفار موسى الخمسة قد ظهرت باللغة اليونانية قبل نهاية القرن الثالث ، وأن كتب الأنبياء قد ظهرت بهذه اللغة فى القرن الثانى ؛ وهذا هو الكتاب المقدس الذى استعان به فيلو وبولس الرسول .

وأخفقت عملية الأغرقة فى مصر إخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ؛ وكان سبب هذا الإخفاق أن المصريين فى خارج الإسكندرية عضبوا بالنواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أوعريهم ، وعلى أساليبهم التى ورثوها من أقدم الأزمنة . يضاف إلى هذا أن اليونان كانوا يرون أنهم فاتحون وليسوا كغيرهم من الخلق ؛ ولم يهتموا بإقامة مدن يونانية جنوب الوجه البحرى أو يتعلم لغة المصريين ، كما أن قوانينهم لم تكن تعترف بالزواج بين المصريين واليونان . وقد حاول بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليونانى والمصرى بقوله إن سرابس وزيوس إله واحد ؛ وشجع من جاء بعده من البطالمة أهل البلاد على أن يتخذوهم آلهة يعبدونها لكى يقدموا بذلك للأهلين المختلفى الأجناس معبودا مشتركا لايلقون صعوبة فى عبادته . ولكن المصريين الذين لم تكن لهم مطامع فى المناصب العامة لم يلقوا بالا لهذه العبادات المصطنعة . وأما الكهنة

(*) وهذه القصة مرجعها خطاب يقال إنه بخط كاتب يدعى أرستياس Aristeas عاش فى القرن الأول الميلادى . وقد أثبت هودى الأكسفردى Hody of Oxford فى ١٦٨٤ أن هذا الخطاب مزور[٤٥] .

obeikandi.com

المصريون الذين جردوا من ثروتهم وسلطتهم ، والذين كانوا يعيشون من الأموال التى تمنحهم إياها الدولة ، فقد ظلوا صابرين ينتظرون انحسار هذه الموجة اليونانية . ولم تكن الغلبة فى الإسكندرية آخر الأمر للصبغة اليونانية ، بل كانت للنزعة الصوفية . ووضعت فى ذلك الوقت أسس الأفلاطونية الحديدة وذلك الخليط من الطقوس المليئة بالأمانى ، والتى كانت تتنازع فيما بينها للاستحواذ على نفوس أهل الإسكندرية فى القرون التى أحاطت بميلاد المسيح . وأضحى أوزريس فى صورة سرابيس الإله المحبب للمصريين فى ذلك العهد المتأخر من تاريخهم ، وللكثيرين من اليونان المصريين ، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة ؛ ولما دخلت المسيحية البلاد لم يجد الكهنة أو الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسرابيس .

———

الفصل الرابع

الفتنـــة

إن الدرس الذى نستفيده من نظام البطالمة الاشتراكى هو أن الحكومة نفسها قد تستغل الناس . نعم إن هذا النظام قد سار مستقيما إلى حد معقول فى أيام بطليموس الأول والثانى ، فقد تمت فى عهدهما مشروعات هندسية عظيمة ، وتقدمت الزراعة ، ونظمت عمليات البيع والشراء ، ولم يفرط مفتشوا الحكومة فى الظلم والمحاباة ؛ ومع أن استغلال الحكومة للمواد والرجال كان استغلالا كاملا لا هوادة فيه فإن الجزء الأكبر مما عاد عليها من هذا الاستغلال قد استخدم فى تزيين البلاد وفى إمداد الحياة الثقافية بما يلزمها من المال . ولكن البطالمة شنوا الحروب وأنفقوا مقدارا متزايدا من مكاسب الشعب على الجيوش والأساطيل والوقائع الحربية ، وتدهورت طباع الملوك تدهوراً سريعاً بعد فلدلفس ؛ فقد انهمكوا فى ملاذ الأكل والطعام والنساء وتركوا أزمة الحكم فى أيدى السفلة الذين ابتزوا كل درهم من الفقراء ، ولم ينس المصريون قط أن هؤلاء المستغلين كانوا من الأجانب ، ولم يغب ذلك عن عقول الكهنة الذين كانوا يحلمون بالحياة المترفة التى كانوا يستمتعون بها قبل سيادة الفرس واليونان .

وكان أهم ما يفهمه البطالمة من الاشتراكية أنها نظام للإنتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق . فقد كان الفلاح ينال من محصوله ما يكفى لحفظ حياته ، ولكنه لايكفى لتشجيعه على عمله أو إعانته على تربية أسرته . وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلا بعد جيل ، ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة كما لايطيق الأبناء متى كبروا الرقابة الدائمة التى يفرضها الأب المستبد عليهم . وكانت الدولة تقرض الفلاح البذور ليزرع بها

أرضه ولكنها كانت تقيده بالبقاء فى الأرض حتى يجنى المحصول ، ولم يكن فى وسع أى فلاح أن ينتفع بأى قدر من محصوله إلا بعد أن يؤدى ما عليه للدولة من التزامات وديون . ولقد كان هذا الفلاح صبورا بطبعه . ولكنه رغم طبعه هذا بدأ يتذمر ، فلم يكد يستهل القرن الثانى حتى بارت مساحات واسعه من الأرض لعدم وجود من يزرعها ، ولم يجد مستأجرو أراضى الملك من يؤجرونها لهم ليزرعوها ، فحاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بزرعها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك العمل ، فأخذت الصحراء تزحف شيئاً فشيئاً على الحضارة . وكان العبيد يعملون فى مناجم الذهب ببلاد النوبة وهم عراة ، فى سراديب مظلمة ضيقة ، وأجسامهم ملتوية ، وهم مثقلون بالأغلال ، يسوقهم الملاحظون إلى العمل بالسياط ، طعامهم حقير لايكاد يسد الرمق ، وقد هلك آلاف منهم من سوء التغذية ومن فرط التعب ، وكانت سلواهم الوحيدة فى هذه الحياة هى الموت[٤٧] . وكان العامل العادى فى المصانع يتقاضى أبلة واحدة (٩/١٠٠ من الريال الأمريكى) فى اليوم ، أما الصانع الماهر فكان يتقاضى أبلتين أو ثلاث أبلات ، ويستريح من العمل يوماً فى كل عشرة أيام .

وعم الاستياء ، وازدادت الشكاوى ، وكثر الإضراب : إضراب بين عمال المناجم ، والمحاجر ، ورجال القوارب ، والفلاحين ، والصناع ، والتجار ، ثم تعداهم إلى الملاحظين ورجال الشرطة أنفسهم . ولم يكن الغرض من الإضراب زيادة الأجور ، فإن الكادحين قد يئسوا من هذه الزيادة من زمن بعيد ، بل كان الدافع إليه هو الإعياء واليأس . وتقول بردية تسجل إضراباً من هذا النوع : « لقد خارت قوانا ، وسنفر من العمل » أى أنهم سيعتصمون بأحد الهياكل[٤٨] . وكان كل المستغلين تقريبا من اليونان ، وكل الكادحين المستغلين تقريبا من المصريين أو اليهود . وكان الكهنة يثيرون مشاعر الأهلين خفية باسم الدين ، على حين كان اليهود يعارضون فى كل عمل تقوم به الحكومة لتخفيف الضغط عليهم أو على المصريين . ولجأت الحكومة فى العاصمة إلى العطايا

وأساليب التسلية لترشو بها الجماهير ؛ ولكنها لم تكن تسمح لهم بدخول الأحياء الملكية ، وكانت تسلط عليهم قوة عسكرية كبيرة تراقبهم وتتجسس عليهم ، ولم تكن تسمح لهم بنصيب ما فى إدارة شئونهم . وما لبثت هذه الجماهير أن أضحت فى آخر الأمر جماعات من الغوغاء عنيفة لا تحس بأية تبعة(٤٩) . وثار المصريون فى عام ٢١٦ ولكن الثورة أخمدت ؛ ثم ثاروا مرة أخرى فى عام ١٨٩ ودامت ثورتهم خمس سنين . وسيطر البطالمة على الموقف وقتاً ما بقوة جيشهم وبزيادة هباتهم للكهنة ، ولكن الموقف كان قد تحرج إلى أقصى حدود التحرج ، لأن موارد البلاد نضبت عن آخرها ، حتى لقد أحس المستغلون أنفسهم أنه لم يبق فيها شىء يستغلونه .

وبدأ الانحلال يدب فى كل شىء ، فانتقل البطالمة من الرذائل الطبيعية إلى الرذائل غير الطبيعية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلا قيد وبسرعة أفقدتهم احترام الشعب ، وانغمسوا فى الترف انغماسا أعجزهم عن إدارة دفة الحزب أو الحكم ، وأفقدهم آخر الأمر القدرة على التفكير . وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاما بعد عام لخروج الناس على القانون ، وقلة أمانتهم وعجزهم ويأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ، ولضعف الهمم والدوافع التى تبعثها الملكية فى النفوس . وذوى غصن الآداب ، وقضى على الفن المبدع الخلاق ، فلم تكد تضيف الإسكندرية إليهما شيئاً بعد القرن الثالث ؛ وفقد المصريون احترامهم لليونان ؛ وفقد اليونان احترامهم لأنفسهم ، إذا صح أن الإنسان قد يفقد احترامه لنفسه ، فنسوا على مر السنين لغتهم ، وأخذوا يتكلمون خليطا فاسداً من اللغتين اليونانية والمصرية ؛ وازدلد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية ، فامتصتهم البلاد واندمجوا فى أهلها ، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية . وما وافى القرن الثانى حتى لم يعد اليونان هم الشعب المسيطر حتى من الوجهة السياسية ؛ ذلك أن البطالمة اعتنقوا دين المصريين

واتبعوا طقوسهم ليحافظوا بهذا على سلطانهم ، وزادوا لهذا السبب عينه من سلطة الكهنة . ولما انغمس الملوك فى الترف والملاذ بدأ الكهنة يستعيدون سلطانهم ويثبتون قواعد زعامتهم ، واستعادوا عاما بعد عام الأراضى والمزايا التى سلبها منهم البطالمة الأولون(٥٠) . ويصف حجر رشيد الذى يرجع إلى عام ١٩٦ق . م الاحتفال بتتويج بطليموس الخامس وصفا لايكاد يختلف فى شىء عن المراسم المصرية القديمة ؛ وفى عهد بطليموس الخامس (٢٠٣— ١٨١) وبطليموس السادس (١٨١ — ١٤٥) أنهكت المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة قوة البيت المالك ، واضمحلت الزراعة والصناعة لغاية الاضمحلال ، ولم يعد الأمن والسلام إلى ربوع البلاد حتى جاء قيصر فاستولى على مصر من غير عناء ، ولم يكن استيلاؤه عليها إلا حادثا عاديا من حوادث حياته ؛ وفى عام ٣٠ ق. م . جعلها قيصر ولاية رومانية .

الفصل الخامس

شمس الحضارة اليونانية تغرب فى صقلية

كانت قبلة العهد الهلنستى هى الشرق والجنوب وكاد يغفل الغرب إغفالاً تاما ، وازدهرت قورينى كالعادة وعمها الرخاء لأنها أدركت أن التجارة خير لها من الحرب . ونبغ فيها فى ذلك العهد كلمخوس الشاعر ، وإرتستنيز وكرنيدز الفيلسوفان . أما إيطاليا اليونانية فقد أضعفها وأقض مضجعها ازدياد سكانها وقوة رومة الناشئة ، وعاشت صقلية تتوجس خيفة من قوة قرطاجة ، وقام أغنياؤها بثورة بعد ثلاثة وعشرين عاما من مجىء تمليون Timoleon فقضوا على حكومة سرقوسة الدمقراطية ووضعوا زمام الحكم فى أيدى ستمائة من الأسر الأرستقراطية (٣٤٠) . ولكن هذه الأسر ما لبثت أن تفرقت وكانت شيعاً ، وقضت عليها ثورة من المتطرفين قتل فيها أربعة آلاف نفس ، ونفى من البلاد ستة آلاف آخرون . ونصب أجثكليز Agathocles نفسه طاغية واستعان على ذلك بأن وعد بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى[٥١] . وهكذا يصل تركيز الثروة من آن إلى آن إلى أقصى حد ، ولاتصلح الحال إلا بالضرائب أو الثورات .

ودامت الفوضى فى سرقوسة أربعين عاما غزا فيها القرطاجيون الجزيرة مراراً وتكراراً ، وجاءها پيرس ، وانتصر ، وهُزِم ، وخرج منها ، ثم سقطت لحسن حظها التى كانت غير جديرة به فى يد هيرون الثانى Hieron خير الطغاة الكثيرين الذين أنتجتهم عواطف أهل صقلية اليونان واضطراب نفوسهم . وحكم هيرون البلاد أربعة وأربعين عاما « لم يقتل فيها مواطناً واحداً أو ينفيه أو يمسسه بأذى ، وذلك بلا جدال أعجب ماسمع به الإنسان » كما يقول پوليبيوس[٥٢] . وكان هيرون يعيش عيشة متواضعة معتدلة رغم ما يحيط به من

أسباب الترف ، وقد عمر حتى بلغ سن التسعين . وأراد فى مناسبات عدة أن ينزل عن ساطته، ولكن الشعب توسل إليه أن يحتفظ بها(٥٣) . وقد هدته حكمته إلى أن يعقد حلفاً مع رومة ، وبذلك حمى البلاد من غزو القرطاجيين نحو نصف قرن من الزمان ، واستمتعت المدينة فى أيامه بالسلم والنظام وبقسط كبير من الحرية ، وأقام منشآت عامة عظيمة ، وترك عند موته خزائنها عامرة بالمال دون أن يرهق الأهلين بالضرائب . وبفضل حمايته أو مناصرته رفع أركميديز العلم القديم إلى أعلى ذروته ، وتغنى ثاوفريطوس ، باللغة اليونانية الفصيحة فى أواخر أيامها ، بجمال صقلية وبعطايا مليكها المرتقبه . وأضحت سرقوسة وقتئذ أكثر بلاد هلاس سكاناً وأعظمها رخاء(٥٤).

وكان هيرون يسلى نفسه وقت فراغه بمراقبة صناعه وهم يعملون بإشراف أركميديز فى بناء سفينة لنزهته ، تتمثل فيها جميع فنون بناء السفن وجميع العلوم التى عرفها الأقدمون . وكان طولها يبلغ نصف استديوم (٤٠٧ قدم) ، ولها سطح واسع للألعاب الرياضية ، ومدرسة للتدريب الرياضى ، وحمام من الرخام ، وحديقة مظللة ، جمع فيها كثيراً من أنواع النبات المختلفة . وكان فيها ستمائة من الفلاحين يدفعونها بعشرين مجموعة من المجاديف ، وكان فى مقدورها أن تحمل فوق هذا العدد ستمائة من البحارة أو المسافرين . وكانت تحتوى على مقصورة ، صنعت أرض بعضها من الفسيفساء ، وأبوابها من العاج والأخشاب الثمينة . وكان أثاثها فخماً ظريفاً ، وزينت جدرانها وسقفها بالرسوم الجميلة والتماثيل ، وكان يحميها من الهجوم دروع وأبراج ؛ وكانت تمتد من أبراجها الثمانية كتل ضخمة من الخشب بكل منها ثقب فى نهايتها تسقط منه الحجارة على السفن المعادية . وأنشأ أركميديز بطول هذه السفينة منجنيقا عظيما يستطيع قذف حجارة زنة الواحد منها ثلاث وزنات (١٧٤ رطلا) أو سهام طول الواحد منها ثمان عشرة قدماً . وكانت هذه السفينة تتسع لحمل ٣٩٠٠ طن

من البضاعة ، وكانت زنتها وحدها ألف طن . وكان هيرون يأمل أن يستخدمها فى الأسفار المنتظمة بين سرقوسة والإسكندرية ، ولكنه وجد أن أحواضها لاتتسع لها لضخامتها ، وأن نفقاتها كثيرة ، فملأها بالحب والسمك من حقول صقلية وبحارها الغنية ، وأرسلها هى وحمولتها هدية منه لمصر ، وكانت وقتئذ تعانى نقصاً فى الحبوب غير عادى (٥٥).

ومات هيرون فى عام ٢١٦ ؛ وكان يرغب أن يضع قبل موته دستوراً ديمقراطياً للمدينة ، ولكنه استمع فى شيخوخته لرأى بناته فأوصى بالملك إلى حفيده (٥٦) . وتبين أن هيرونيموس Hieronymus هذا نذل ضعيف ، نبذ حلف رومة واستقبل وفوداً من قرطاجة ؛ وسمح لهم أن يكونوا من الوجهة العملية حكام سرقوسة ، وكانت رومة لاتجد كفايتها من الحبوب فأخذت تستعدلقتال قرطاجة لتنتزع منها ثروة الجزيرة التى لم تتعلم فى يوم من الأيام كيف تحكم نفسها . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط وقتئذ أشبه بالفاكهة العفنة على استعداد لأن يسقط فى يدى فاتح أشد بأساً وأقسى قلباً من كل من عرفهم تاريخ اليونان من الفاتحين .